

نظرة تأمل في حياة الإنسان (صانع البيوتكنولوجيا) والأسباب الرئيسية لصنع البيوتكنولوجيا

أولاً: تمهيد للجولة، ولنا وقفة

عزيزنا القارئ .. لعله من المناسب في ختام جولتنا بهذا الكتاب أن تكون لنا وقفة!!

فبعد هذا الاستغراق والتوسع في عرض جولتنا الخاصة بالصناعة إنقصد بها عالم البيوتكنولوجيا - وبعد التجول بين ثنايا أطوارها المختلفة وبخاصة «مرحلة الهندسة الوراثية» لإبراز أهميتها وما أحدثته وتحديثه في حياة الإنسان وكل الكائنات ... جدير بنا أن نقف معاً لبعض الوقت.. لتتدبر وتأمل أمرين هامين هما:

١- عن الصانع البديع «جلّ وعلا» الذي صنع الإنسان.

٢- عن الإنسان صانع هذه البيوتكنولوجيا ... ومعه نتحدث عن النيوتكنولوجيا وأسبابها بصورة أعمق.

فلأن الإنسان خليفة الله (سبحانه وتعالى) على الأرض بمشيئته جلّ وعلا... جعله «المولى» مخلوقاً له وعى وإدراك وعلمه ما لم يعلم، كل ذلك دفع الإنسان إلى أن يكون ذا قدرة على اكتشاف بيئته وتأثيره وإعماله فيها... ومع تسخير مسبحانه وتعالى لنا ما في الأرض جميعاً... وكلما ازداد وعى الإنسان وتأمل له لما يجري في الحياة... اكتشف أن ثراء الحياة لا يتجلى فقط في تنوع الكائنات، وعلم أنه ليست هناك كائنات تحيا منعزلة من البداية للنهاية.. واستتج أن كل الحياة على الأرض تمضي في تفاعل وتناغم... منسجمة مع بعضها في انزان عجيب - وهو ما لاحظته معنا عزيزنا القارئ من خلال جولتنا مع البيوتكنولوجيا في الكتاب... ولا يسع المتأمل لكل هذا ... صاحب الفطرة السليمة إلا أن يقول أن وراء كل هذا إله واحد خالق عظيم قدير، فكل ذلك دليل على عظمة الخالق جلّ وعلا وبديع صنعه.

ومع تأملنا أيضاً سنلاحظ أنه كلما ازدادت خبرة الإنسان ازدادت قدراته على التحكم فى موارد البيئة وازداد عمق تفكيره ووعيه ومقدرته على تحسين معيشتة... وبالتالي اتسع مفهوم البيوتكنولوجيا... والتي تعد هى نفسها بمثابة نقلات على طول طريق التطور الحضارى والوراثى... شاهدنا كيف كانت أيام قدماء المصريين ثم كيف ازدادت تطوراً لنجد مزارع الأنسجة فى القرن التاسع عشر ثم لتسع أطوارها {الست} التى تحدثنا عنها... وأدت إلى إحداث نقلات واسعة النطاق... تعيد تشكيل المجتمعات والحكومات... أثرت تأثيراً بالغاً فى الاقتصاديات والنظم الإيكولوجية. ومن خلال ذلك التأمل يمكننا أن نستشف الأسباب الحقيقية (أو بعضها) والتي تكمن وراء تلك الطفرات والإنجازات المهولة التى حققها الإنسان وما سيحققها فى المستقبل بإذن الله تعالى.

ومن ثمرات هذا التأمل ... يلفت انتباهنا ٣ (ثلاث) أمور رئيسية نعتبرها بمثابة الأسباب الرئيسية (الأسس) وراء تحقيق الإنسان لكل النجاحات والإنجازات فى كافة الميادين، ولاستقراره على الأرض.. وبالتالي فهى بالتبعية وراء ظهور البيوتكنولوجيا وكافة العلوم والتطبيقات الأخرى. وهذه الأمور هى:

١- الأمر الأول،

وهو الذى نعدده بمثابة البداية والأساس الحقيقى.. هو تقدير المولى (جل وعلا) ومشيئته التى لا تعلو عليها مشيئة بخلقه سبحانه للإنسان وتكريمه له فى جعله فى أحسن صورة؛ وهناك آيات قرآنية كريمة كثيرة.. نذكر منها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّكْرِ ٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ٨﴾ ﴿

صدق الله العظيم {سورة التين}

ومن سورة الانفتار نذكر:

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾

صدق الله العظيم

وجعل الله سبحانه وتعالى الإنسان خليفته على الأرض.. وسخرها له بما بها من كائنات وجماد، ليطوعها الإنسان بحسب ما يراه في مصلحته واستقرار شأنه.. ولن نجد تعبيرات تفسر تلك الحقيقة أفضل مما لجده في كتابه سبحانه وتعالى (القرآن الكريم) من آيات مباركات، ومستحاول عرض بعض من هذه الآيات المباركات... مع محاولة حسن تدبرها وتأملها حيث نجد بها ما ننشده من أصدق وأعظم تفسير لمجريات الأمور ولحقيقة خلق الإنسان، ونذكر من هذه الآيات المباركات ما يلي:-

بسم الله الرحمن الرحيم

١- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَتُبْتَوْنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

{سورة البقرة}

٢- ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ

{سورة الملك}

﴿ ١٥ ﴾

٣- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ

{سورة البقرة}

سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

٤- ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾

{سورة: يس}

٥- ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ {سورة الزمر}

٦- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِاعْيُنٍ ﴿٢٨﴾﴾ {سورة الدخان}

٧- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾

{سورة الكهف}

٨- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ {سورة الجاثية}

٩- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ

﴿١٠٥﴾﴾ {سورة الأنبياء}

١٠- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ

رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

{سورة النور}

١١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا

عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

﴿٢٤﴾ وَيَشِرُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا

رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ

مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

{سورة البقرة}

ها نحن عزيزنا القارئ نجتهد في تدبير معانى تلك الآيات الجليلة .. خالق عظيم .. إنسان مخلوق فى أحسن صورة.. أرض جعلها الله (سبحانه وتعالى) ذللاً.. بها كافة سبل الحياة المناسبة لهذا الإنسان.. من كائنات وجماد وسماء ينزل منها المطر .. الخ وبهذا التسخير من قبل المولى «سبحانه وتعالى» للإنسان ليُظهر الإنسان إمكانياته ويُطوع ما بالأرض وفقاً يشاء.. وبخاصة بعدما علم الله آدم الأسماء كلها..

الأمر الثاني: شريعة حكيمة

فمترتب على وجود الإنسان على الأرض وتسخيرها له وإعمارها للأرض وتكاثره.. حدوث ذلك التفاعل بين البشر بعضهم البعض من جهة.. ومن جهة أخرى مع جميع الموجودات على الأرض.. لذا أنزل الله «سبحانه وتعالى» شريعة حكيمة لتنظيم حياة البشر وعلاقاتهم من منطلق أنهم جميعاً من أبناء آدم وأنهم سواسية يتفاضلون بتقواهم وإيمانهم بالله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾﴾ {سورة الحجرات}.

وهناك آيات كثيرة بتأملها نرى أنه سبحانه يحثنا على ضرورة السعى فى الكون والتعرف على ما به فهو من ضروريات وواجبات أمانة استخلاف الإنسان وتحمله للأمانة نذكر منها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعَظْمِكُمْ بِهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ {سورة النساء}

ومع ذلك الحق الذى أعطاه الله للإنسان ليتمر فى الأرض فينى ويشيد ويتعالى فى البنيان، ويغوص لأعماق البحار، ويصعد إلى السماء؛ ويغوص فى أعماق الجسم البشرى، ويبتكر ويحصد... ، ولقد حذر الحق سبحانه وتعالى الإنسان من أن تلهيه الدنيا لدرجة يتحول فيها ذلك الإعمار إلى فساد فى الأرض وقطع ما أمر به الله أن يوصل وعندنا فلينظر الإنسان عقابه بالدنيا وبالآخرة:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الرعد]

ومع هذه الشريعة الحكيمة.. أبقى الله فى محكم كتابه، وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله ما يقيم على الإنسان الحجة بمنطقه العلمى ويحرك القلوب الواعية والنفوس السوية والعقول المنصفة، ويردها إلى الإيمان بالغيب الذى بدأت الحضارة المادية والمعاصرة بإنكاره ويعلم الله المحيط بكل شىء.. سلفاً.. أن الإنسان سوف يصل إلى مرحلة ووقت يتجمع له فيها من المعارف بالكون ومكوناته وسنته ما لم يتوفر لجيل من الأجيال من قبل، فينبهر باكتشافاته العلمية وتطبيقاته التقنية وينغمس فى أمور الدنيا إلى آذانه وينشغل عن أمور الدين وركائزه أو يتجاهلها، أو ينكرها.. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأعراف] وهذا يأخذنا للأمر الثالث.

الأمر الثالث: «العقل» والمعرفة،

ذلك التكوين الربانى .. الذى منحه الله «سبحانه وتعالى» للإنسان باعتباره خليفته على الأرض.. وهو يعتبر بمثابة منظومة كاملة .. «هى المنظومة العقلية». ومع هذه المنحة الربانية كانت «المعرفة» التى بدأ بها الإنسان حياته على الأرض ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا... ﴿٣١﴾﴾ [سورة البقرة] ، فالإنسان لم يوجد على الأرض ويبدأ حياته بدون معرفة كما تشير إلى ذلك كتابات وأفلام الغرب التى تذكر أنه كان يُقلد الحيوان ثم يرتقى ليكون إشارات ولغة و... و... إلخ. لكنه بدأ ولديه عقل ومعرفة (كما أخبرتنا الآيات) كانت بمثابة الأساس الذى دعم له استقراره وسهّل له حياته

على الأرض.. يُعمل عقله ويُعلَى بنيانه وباستخلافه على الأرض حقق ما نراه ونلمسه ونعيشه.. لقد وفرت عليه تلك المشقة والفترات الزمنية التي يفترضها ويتخيلها ويتوهمها «البعض» حتى يصل للمعرفة واللغة التواصل ليبدأ الرقى.. فلغة التواصل بدأت مع بداية وجود الإنسان على الأرض... ولم يكن يتصرف كالحَيوان... كما يذكر البعض.

وإن الإنسان بامتلاكه لهما (العقل والمعرفة) يصير متفرداً ورائداً على سائر مخلوقات الأرض... (إن شاء الله). وجعلت «العقل والمعرفة» الإنسان يتميز بخصائص فريدة هي كما يراها د. «أحمد شوقي حسن» في كتابه «هندسة المستقبل»: «.. الحرفية القابلة للتنمية المستمرة، المقدرة على استبعاد خبرات السابقين وتجاربهم {الربط الزمني الواحى}، والقدرة على التحليل الإبداعي.

والإنسان بامتلاكه لهذه الخصائص والمميزات التي حباها الله بها؛ تمكن من حسن الاستيعاب والاستفادة من خبرات سابقه بوعى وإدراك وأعمل فكرة المبدع الخلاق الذي يعطيه القدرة على الخيال الجريء والإنتاج الفكري الذي لا يعرف الحدود، فأضاف على هذه الخبرات وابتكر ليتغلب على ما يقابله من عثرات ومحن، مقدماً أفضل الطرق والحلول لمجابهة الظروف المتغيرة له ولسكان الأرض ومُوجِّهاً حياته للأفضل وبمرور الوقت وازدياد وعيه ومقدرته على التحكم في البيئة ومواردها صنع تاريخه، وتمكن من ارتياد آفاق الرقى وبناء الحضارات المتعاقبة والتي بنيت على هذا الأساس، وتدهورت أخرى أو عجزت عندما انهار لديها هذا الأساس، وبرز بهذه الحضارات العديد من الثورات العلمية المناسبة لكل مرحلة زمنية، وأمكن للإنسان الحالي وفقاً لذلك أن يُشكل التيارات الحالية للمعارف البشرية والتي تأتي في مقدمتها مجالات (أطوار) البيوتكنولوجيا. {محمور كتابنا}

إن الإيمان بأن وراء كل هذه الصنعة صانعاً عظيماً كرمَّ الإنسان روحاً وجسداً هو موقف كل الأديان السماوية...

ومستشير هنا إلى:

١- حديث د. محمد سيد طنطاوى «شيخ الأزهر».

٢- موقف أتباع الأديان السماوية الإيجابية.

أولاً، حديث د. محمد سيد طنطاوى «شيخ الأزهر»:

ويحضرنا فى هذه الوقفة التأملية أن تذكر جزء من مقالة فضيلة الإمام الأكبر د. «محمد سيد طنطاوى» شيخ الأزهر.. وهو عن (تكريم الله للإنسان روحاً وجسداً وضورة) .. ولترك له الحديث:

من المتفق عليه عند العقلاء، أن شريعة الإسلام قد كرمت الإنسان روحاً وجسداً وصورة، تكريمياً عظيماً سواء أكان حياً أو ميتاً.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٧٠)

{سورة الإسراء}

والمعنى: والله لقد كرمنا بنى آدم من رجال ومن نساء تكريمياً عظيماً، ومن مظاهر ذلك أننا خلقناهم فى أحسن تقويم، كما قال سبحانه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) {سورة التين}.

أى: لقد خلقنا الإنسان فى أعدل قامة، وفى أجمل صورة، وفى أحسن هيئة وميزناه بالعقل وبالبيان، وسخرنا الكثير من مخلوقاتنا لخدمته، وحملناه بقدرتنا فى البر والبحر، ورزقناه بفضلنا وإحساننا من طيبات المطاعم والمشارب، وفضلناه على كثير من مخلوقاتنا التى لا تعد ولا تحصى.

كذلك من مظاهر هذا التكريم أن شريعة الإسلام قد اعتبرت جسد الإنسان أمانة ائتمنه الخالق - عز وجل - عليها وأنه لا يجوز لأحد أن يتصرف فى هذا الجسد بما يسوؤه أو يهلكه إلا بالحق، حتى ولو كان هذا التصرف صادراً من صاحب الجسد ذاته.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وظلماً فسوف نصلبه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً (٣٠) ﴿

{سورة النساء}

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «من تردى من جبل فهو فى جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن تحسى سمًا فقتل نفسه فسُمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها - أى: يضرب نفسه بها - فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا».

وأيضاً من مظاهر تكريم شريعة الإسلام للإنسان، أنه أمر كل مسلم أن يهتم بإصلاح جسده، بأن يستعمل كل وسائل العلاج التى تؤدى إلى شفائه، أو إلى تخفيف مرضه، ففى الصحيحين - البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء فتداووا يا عباد الله».

فهذه النصوص من كتاب الله - تعالى - ومن السنة النبوية الصحيحة، واضحة كل الوضوح فى أن شريعة الإسلام، قد كرمت الإنسان تكريمًا عظيمًا، وأمرت بالمحافظة عليه من كل ما يهلكه أو يؤذيه، ونهت عن قتله أو عن إنزال أى ضرر به إلا بالحق، لأن كل إنسان وإن كان صاحب إرادة بالنسبة لبدنه، إلا أن هذه الإرادة مقيدة بالحدود التى شرعها الله - تعالى - وفى النطاق المستفاد من قوله سبحانه - ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ...﴾ (١٦٥) ﴿سورة البقرة﴾.

ثانياً: موقف أتباع الأديان السماوية الإيجابية؛

تثور المناقشات وتهدأ فى أوروبا وأمريكا منذ ١٥٠ سنة بين الخلقين (Creationists) الذين يؤمنون بأن روعة تكوين الأشياء العديدة فى الكون ودقة تصميمها دليل على وجود الخالق؛ وبين أتباع تشارلز داروين Charles Darwin منذ أن نشر كتابه أصل الأنواع Origin of species عام ١٨٥٩م: - والذى ذكر فيه داروين مجموعة من العوامل أرجع إليها هذا التطور للكائنات منها التغيير العشوائى وما أطلق عليه نظرية (الانتقاء أو الاختيار الطبيعى natural selection)؛ وفى ضوء هذا الانتقاء يذكر داروين أنه بمرور الوقت حدثت تغييرات فى الكائنات ساعدتها على التكيف مع طبيعة الحياة وهذه التغييرات الإيجابية ورثتها الكائنات لنسلها

والذى يُطلق عليه عملية النشوء والارتقاء} ، وذكر أن البشر أسلافهم من أشباه القردة وقد تطوروا من خلال عمليات بيولوجية؟!..

وناقض داروين معتقدات المتدينين وتعاليمهم بشأن خلق العالم. وستناقش فى النقاط التالية جانباً من هذه المناقشات الدائرة بين الطرفين .. (وهى من مجلة العلم يونيه ٢٠٠٥ م نقلاً عن مجلة فوكس):

١. عالم اللاهوت «وليم بالى» ونظريته الشهيرة حول التصميم والتكوين؛

فى عام ١٨٠٢ م طرح عالم اللاهوت الإنجليزى «وليم بالى» نظريته الشهيرة التى تُعرف باسم (الحجة من التكوين) وأكد فيها وجود ظواهر رائعة لا يمكن أن تكون إلا من صنع الله وذكر أنه من غير المقنع على الإطلاق أن شيئاً ما قد تطور بالصدفة ليصبح مناسباً للغرض الذى وُجد من أجله.. كعين الإنسان مثلاً. ومن هنا يصبح من المقنع القول بأن هناك قوة مرشدة وراء تكوين هذا العضو وهذه القوة هى {الله}.

ويريد بالى القول بأنه يتعين إرجاع هذا النشوء وذلك الارتقاء إلى قوة عظمى وليس للصدفة.

٢. طائفة «سبتيين اليوم السابع»؛

تأسست فى عام ١٨٦٣ م على يد الفتاة الأمريكية «إيلين هويت»، وهى حركة أصولية مسيحية.. ومن تلك الحركة خرج المدافعون الأوائل عما يُعرف باسم «علم الخلق» ولقد كانت هناك العديد من المواجهات بين أصحاب «نظرية الخلق» ومؤيدى نظريات داروين شهدت المحاكم فاصلاً منها.

٣. نظرية التصميم الذكى؛

لم تكن هذه النظرية سوى تطوير للنص الذى جاء به {بالى} منذ ٢٠٠ سنة حول تصميم الخلق... والجزء الرئيسى من هذه النظرية هو مفهوم «التصميم الذكى» لا يمكن أن يأتى مصادفة، وحسب هذا المفهوم فإن هناك قدرات معينة لدى الكائنات لا يمكن أن تكون توافرت عن طريق الصدفة.. حتى ولو عبر مليارات السنين».

٤. كتاب «صندوق داروين الأسود» للدكتور مايكل بيهى؛

صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٩٦م للدكتور مايكل بيهى وهو أستاذ للكيمياء الحيوية فى جامعة بيهير فى بنسلفانيا... وذكر بالكتاب أمثلة عديدة تؤكد على أن تصميم المخلوقات لا يمكن أن يأتى مصادفة، وتراوحت الأدلة بين نظام الدفاع لدى حشرة الخنفساء القاذفة و {تجلط الدم لدى الإنسان} وأنها رغم بساطتها الشكلية فإنها تنطوى على قدر كبير من التصميم لا يمكن أن يكون قد جاء عن طريق الصدفة..

مثال، كيفية عمل نظم الدفاع فى حشرة الخنفساء القاذفة،

يلغ طول الخنفساء الواحدة حوالى مستيمتر فى المتوسط... وعندما يتهددها خطر ما فإنها تبدأ فوراً فى إطلاق سائل ساخن حارق على من يهاجمها، فيصاب ذلك المهاجم بالعمى.. وتهرب هى ناجية بحياتها... وفى ذلك... يُذكر أن الغدد الداخلية فى جسمها تقوم بإفراز مادتي بيروكسيد الهيدروجن، والهيدروكيتون.. وفى الوقت اللازم تدخل المادتان غرفة داخل جسمها وتتفاعلان فيها فى وجود مادتين كيميائيتين تقومان بدور العامل المساعد... والنتيجة تكون سائلاً حارقاً هو الذى يندفع بسرعة خارجاً من الغرفة إلى فوهة فى أنف الخنفساء التى تقوم بإطلاقه على مهاجمها سىء الحظ.

ويتساءل الباحثون: كيف يمكن أن يطور نظام دفاعى بكل هذا التعقيد والتطور لدى تلك الحشرة الصغيرة بشكل عشوائى، ولو تأملنا هذا النظام الدفاعى لوجدنا أن أياً من مفرداته ليس له قيمة بشكل منفرد، وإنما تكتسب قيمتها عندما تجتمع معاً لتزود الخنفساء القاذفة بأداة فعّالة للغاية للدفاع عن نفسها.. إن هذا التفاعل لا يمكن أن يكون سوى وليد عمل «مصمم ذكى» لأنها لو تفاعلت بشكل عشوائى يعتمد على الصدفة لما أنتجت لنا ذلك الاتساق المتكامل ولكن أنماط مشوهة.

... ولا زالت المناقشات دائرة لم تتوقف بين كلا الطرفين .

وإذا تأملنا موقف الرافضين لوجود صانع مُبدع للكون بما فيه... فإننا سنجدنا تعارض بعضها البعض وتخبط السير... فمن جهة نجدنا تنسب الفضل فى وجود

الحياة على الأرض وتدرجها لتصل بفضل «التطور» والانتخاب الطبيعي إلى تكوين «الإنسان العاقل» ثم نجدها تنسب الفضل في تقدم العلم للإنسان وحده والملكات المميزة وترى أنه لنجح باستخدام هذه الملكات في «قهر» الطبيعة و«السيطرة عليها»، مع أنه لم يكن ليستطيع ذلك إن سلمنا جدلاً أنه استطاع ذلك - إلا «بتعاون» الطبيعة معه .. فمن ضمن له هذا التعاون؟ وبدلاً من أن ينهر الإنسان بالطبيعة وبخالقها الذى أبدع صنعته عند استكشافه لها وللقوانين التى تحكمها انبهر بنفسه . فكان شأنه كمن عثر على آلة معقدة نفيسة تزخر بالعجائب فى كهف مهجور فاعتبر الإنجاز الأعظم هو عثوره على الآلة ولم يتوقف ليعجب كيف صُنعت ولا من صنعها!!

ولا نعرف عزيزى القارئ لماذا وقفوا عند حد «الطبيعة» وأنها البداية وأن تكون الأنواع المختلفة من الكائنات جاء بالانتخاب الطبيعي.. والذى به كانت الحياة؟! .. وتغافلوا (عن عمد) ولم يسألوا عن الذى خلق تلك الطبيعة وأوجدها ثم كيف يكون للصدفة وللطفرات (الغير مقصودة) ذلك الدور الرئيسى فى مسألة انتخاب الكائنات وإبقاء الأصلى منها والمحافظة على تكاثرها مع متغيرات البيئة... كيف؟! وكيف تتمكن تلك الطبيعة (المخلوقة) من تدبير أمر الحياة على الأرض هذا التدبير المحكم؟! وتعطيها القدرة على البقاء؟! أسئلة كثيرة نوجهها لهم وبالطبع فهم لن يستطيعوا الإجابة عنها بصدق.. وستستشف من إجابات العديدين منهم إصراراً حقيقياً للتكرار والتشكك فهل هى محاولة للتهرب.. من الخالق!!

أم قلوب لا تعقل؟ وسميت العيون والعقول؟! ترى.. لماذا؟! مهما كانت المبررات فهى واهية.. منحرفة عن الفطرة السليمة... تعالى الله عما يصفون:

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٧﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿سورة الزمر﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ {سورة الأعراف}

فالأمر من بدايته لنهايته من تدبير وإحكام الخالق جلّ وعلا .. أعطى للإنسان كل المقومات للاستمرار ولبناء الحضارات، ولإعمال العقل . وصناعة الثورات بما فيها تلك الثورة الموهولة... ثورة البيوتكنولوجيا.

فمعيباً لمن يرى ذلك الكون بمخلوقاته المعد بهذه الطريقة المدهشة البديعة... المقدرة والتي لا مجال فيها للعبث ثم يغفل عن أوجد كل ذلك ويعتقد أنه لن يُحاسب عن خلقه!!!

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ {سورة المؤمنون}

ونهى - عزيزنا القارىء - جولتنا التأملية بهذه الآيات الكريمة:

﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ {سورة لقمان}

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

{سورة البقرة}

﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ

{سورة الذاريات} ﴿٥٨﴾

وإن كان الكون بما فيه يسجد ويسبح لله ﴿ .. وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..

﴿٤٤﴾ {سورة الإسراء}

فلتسجد وتسبح ... أيها الإنسان..

وفى ختام جولاتنا بهذا الكتاب، أعرض لعزیزنا القارئ هذه المقولة وهي من عالمٍ يعد برأيه إذ يقول :

”... ما الذى يتبقى لنا لاكتشافه؟ .. تقريباً كل شيء، فى علم

الكونيات كما فى علم الأحياء“

هذا عزیزنا القارئ ما يراه جون مادنوكس، العالم والمُحكّم العلمی

الصارم والمدير السابق لأشهر دورية علمية ”ناتشر“ وهي إجابة خطيرة، من

رجل علم عالمی، فهو يوشك أن يقطع بأننا بعد قرنٍ خصب من

الاكتشافات المدوية، لا نكاد نعرف شيئاً“.

مصدقاً لقوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

{سورة الإسراء}

﴿٨٥﴾

﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُنْ

{سورة فصلت}

بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

صدق الله العظيم